

وتفهمنا مؤدى ذلك .. انتهينا منه الى تصوير هذا الادب في معظم حالاته ذنبا وراء السياسات لاصقا بأعجازها ، او عبدا لها قنا ، مجرورا ابدا بخطمها ، ومصرفا بهراواتها ، او محبوسا على الخسف بأجرتها، كما تريد له ، لا كما يريد ، دون أن تكون له في نفسه قوة يمتنع بها عن قبول هذه التبعية الذليلة ، او هوى في التمرد على توجيهاتها له وسيطرتها على حريته .

وانى يكون ادب - تستقيم له حياة وترتقي به لغة - حين يكون هذا شأنه من التبعية الذليلة وفقدان الحرية ؟ وهل عرف الادب العربي الاصيل منطلقا له من غير هذه الحرية ؟ وهل تنفس الا من جوائها الطلقة نواسمها الصافية المنعشة للارواح والاكباد ، والباعثة القوة والنشاط في عروقه ؟

نخلص من هذا الى أننا نجد أنفسنا من هذا المذهب بازاء قانون خاص ان صلح لكتابة تاريخ عام به لاداب هذه الوحدات الاوربية الصغيرة ، فان التجارب في تطبيقه في تدوين تاريخ ادبنا ، قد انتهت بنا ولا ريب الى الاخفاق في ابراز قسامته الدقيقة ، ورسم صورته الصحيحة ، وتوضيح اصلته وهي تعلق على الخلاف والشبهات .

فلا مندوحة لنا اذن من اطراحه وتركه الا ما فيه من مسحة التفكير والتنظيم ونحوهما ، ومن التماس قانون آخر غيره ، نكتب به هذا التاريخ كتابة تحقق صورته الصحيحة على وجه افضل واكمل واصدق .

فما هذا القانون الجديد الذي ادعو الى التماسه؟ ما روحه ؟ وما طبيعته ؟ واين نلتمسه ؟

بديهي ان ادب كل امة تحكمه قوانين لفتها ، وروحها المفرغ في هذا الادب ، قبل ان تحكمه المؤثرات الخارجية ، وكل ادب اصيل كالادب العربي - يستمد وجوده واستمراره من روح الامة بعيدا عن التقليد والمحاكاة لاي ادب كان - يتميز عادة ، بشخصية قوية، قوامها الوضوح والصدق ، وبلاغها التأثير والابداع .

**واللغة العربية - وهي وعاء العقل العربي ومبدعاته - تتميز بخصائص نشأت فيها من روح الامة العربية وتجاربها خلال الاماد التي اجتازتها من لدن ولدت مع العرب الى أن بلغت بهم كمال نضجها ، واستوت في ازوع صورها البلاغية التي مثلت الاعجاز في القرءان الكريم ، فعلت بذلك على مجرد « التعبير عن المقاصد » كما يقال في تعريف اللغات ، وانتهت بهذه الخصائص الى تحمل معاني الوجود ومبدعات المقبول .**

ولن يختلف عالمان في انها تميزت من هذه الخصائص اولا بهيأتها وموازينها وقوانين اشتقاقها ، وتميزت ثانيا بكمال مخارج حروفها مهموسة او مجهورة ، وبروعة موسيقاها وحلاوة نغمها ودقة جرسها ، وتميزت ثالثا بهذا الفيض الغزير من مادتها وفرط غناها من الالفاظ الموضوعه بازاء مختلف المعاني وادق الفروق . وهي بكل اولئك تسلس - في طواعية تامة - قياد التعبير عن التشكلات التي تعرض للنفس الانسانية في المنشط والمكروه وشتى الاحوال ، وتساوق اغراضها ، وتتلون بألوانها جميعا ، فتلين وتعذب حتى لكانها لا تعرف غير اللين والعدوية في مثل الفزل والحنين والوجد والاشواق، وتشد وتصلب في مواطن العنف القوة ، فتبدو وكأن الفاظها وجملها قد قبست من لهب النار ، او قدت من معادن الحديد ... وهي في هذا وغيره ، تجري دائما على توافق تام مع روح الموضوع واندماج كامل في صميمه ، وهكذا تتشكل باشكال الاشياء ، وتبرز مع كل حالة موقعة بايقاعها وحرارة روحها توافقا وانسجاما كما تتناسق وتتوافق في الرقص الايقاعي لقطات الرجل مع صفق « الصفاقات » او نقرات اليد على « الطار » بحساب .

ولست ادري اكان ابن حمديس - شاعر حليق - لمح في راقصته خاصة اللغة العربية هذه في توافق ايقاعها ، ام لمح في اللغة العربية خاصة رقص الراقصة في توافق لقطات رجلها ونقرات الطار ... حين وصفها وصفه المشهور :

وراقصة لقطت رجلها

حساب يد نقرت طارها ؟

هذه واحدة .

واخرى ان اللغة العربية - الى هذه الخاصية الرائعة بكل اوصافها وسماتها - تمتاز بشيء اكبر من هذا ...

**تمتاز بالشحنات النفسية ، وطاقات الحياة النامية التي تعمل في باطنها دائما فتغذيها وتقويها ، وتمنحها القدرة البالغة في التأثير والابداع .**

ذلك بما أفرغته الامة العربية فيها ، في آمادها الطويلة ، من قوة روحها ، ورهافة حسها ، ووقدة شعورها ، وحرارة خيالها ، وعمق تصورها ، وسعة حريتها المكتسبة من طبيعة الصحراء ولانهاية الفضاء ، وما الى ذلك وغيره من اخلاق ومعان وتجارب ، ومن مثل انسانية رفيعة ونبيلة أفرغها كتاب الدعوة الاسلامية المعجز ، وادب النبوة الحي - وهما المثلان